المقدمة

الحمد لله رب العالمين خالق الخلق أجمعين القائل في محكم التنزيل: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [1] والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد الصادق الأمين الذي بشّر وأنذر وخوّف وحذّر، ونصح الأمة وكشف الغمّة وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد، ، ، ،

في الربع الأول من القرن السابع الميلادي أضاء في سماء البشرية حدث عظيم، أدى إلى تغيير التاريخ الإنساني من جميع جوانبه، وأعني به بعث النبي محمد (ﷺ) برسالة الإسلام.

ومع أن هذه الرسالة السماوية قد نزلت على نبي عربي وبلسان عربي مبين، وفي بيئة عربية محضة، إلا أنها لم تكن أبداً رسالة عنصرية مفترضة على أمّة بعينها، بل إن الأمر الإلهي نزل صريحاً بأن الرسول (ﷺ) مُرسل للبشرية جمعاء قال - جلّ وعلا: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ [2] وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِين ﴾ [3].

وبوجود هذه العمومية في التبليغ ضمن الخصائص الأساسية للدين الإسلامي، فإنه ترتّب عليها قيام الرسول (ﷺ)، ثم المسلمين معه ومن بعده، بنشر رسالة الإسلام في كل أرجاء الأرض، بما في ذلك المنطقة موضوع الدراسة وهي القارة الأفريقية (جنوب الصحراء).

وفيما يخص أفريقيا جنوب الصحراء فإن وصول الإسلام إليها كان قد حدث في زمن مبكرٍ جداً من عمر الإسلام، بل إنه وصل إليها قبل أن يصل إلى معظم مناطق الجزيرة العربية، إذ إن ظروف العداء والتنكيل والتعذيب التي واجهها أوائل المسلمين من قبل قريش، أدت بهم، وبتوجيه من الرسول (ﷺ) إلى الهجرة إلى الحبشة فراراً بدينهم، فكان هذا أوّل اتصال للدين الإسلامي بالقارة الأفريقية.

---

(1) سورة آل عمران: الآية (84).

(2) سورة سبأ، الآية (28).

(3) سورة الأنبياء، الآية (106).

وبعد أن أعزّ الله دينه وأظهره في جزيرة العرب وقامت الدولة الإسلامية، بدأ الدين الإسلامي في الدخول إلى القارة الأفريقية بشكل تدريجي عبر مسالك ووسائل متعددة، بدءاً بالهجرات العديدة التي توالت في أزمان مختلفة، والتي استوطن خلالها مهاجرون مسلمون القارة الأفريقية، حاملين معهم دينهم الحنيف، ومرروا بالنشاطات الاقتصادية المتبادلة بين بلاد المسلمين وجنوب الصحراء عن طريق التجارة والتجَّار، الذين كانوا هم أيضاً يحملون دينهم بجانب تجارتهم، ويدعون إليه وينشرونه حيثما حلّوا ووصلوا، إلى جانب الدعاة الذين نذروا أنفسهم لنشر الدين الإسلامي في أرجاء المعمورة، والذين خاضوا مجاهل أفريقيا من أجل نقل رسالة الإسلام إلى سكان تلك البلاد، الذين كانوا يرسفون في قيود الوثنية والشرك، وبالتداخل معهم كانت الطرق الصوفية، تُبّلي هي الأخرى أعظم البلاء في سبيل نشر الإسلام، وتُسخر كل ما أوتيت من قدرات وإمكانات للقيام بهذه الرسالة العظيمة، والتي تهدف إلى نقل الإنسان من واقعه المظلم إلى نور الله، والإيمان والتوحيد والفطرة السليمة والمساواة والعدل والحرية.

كل هذه الوسائل التي تقدّم الحديث عنها تظافرت وتآزرت لإنجاز عمل ديني وتاريخي هائل النتائج إذ ترتب على دخول الإسلام لتلك البقاع: تغيير تام في ملامحها الدينية والفكرية والحضارية، بل إنه يمكن القول إن تاريخ الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى هو نفسه تاريخ انبعاثها الحضاري، وهو كذلك تاريخ ولوجها إلى ساحة الأحداث في العالم، فهي بالدعوة الإسلامية افتتحت لنفسها صفحات التاريخ، وسارت في موكب الحضارة الإنسانية، وساهمت في مسيرتها باعتبارها أصبحت جزءاً لا يتجزأ من البلاد الإسلامية.

إن التأثير الكبير الذي أحدثه دخول الدين الإسلامي إلى أفريقيا، يتجلّى في تلك النقلة غير المسبوقة التي حصلت للأفارقة، باعتناقهم للدين الإسلامي، وكل ذلك ما كان ليحصل لولا أن تكاثفت وتضامنت عديد الوسائل التي أدّت بفضل مجهوداتها المشتركة إلى نقل الدين الإسلامي من مهده الأول في شبه الجزيرة العربية، إلى أفريقيا جنوب الصحراء في عملية تراكمية طويلة الأمد زمنياً وواسعة الانتشار مكانياً، لم يكن لها من هدف سوى نشر الإسلام وإيصاله إلى أبعد مجتمع بشري، وأقصى نقطة جغرافية ممكنة.

وتكمن أهمية موضوع هذه الدراسة، في أنها ترتبط بجوانب عديدة من حيث كونها

محاولة لتبيين الجوانب الحقيقية والصحيحة للوسائل التي دخل بها الدين الإسلامي لأفريقيا جنوب الصحراء بعيداً عمّا كتبه مؤرخو الغرب، الدين لا هم لهم سوى كيل التهم جزافاً، وثني الحقائق التاريخية بشكل يخدم مصالح بلدانهم الاستعمارية ؛ تلك الكتابات التي حاولت عبر زمن طويل تشويه التاريخ الأفريقي والإسلامي معاً، وسعت إلى تثبيت صورة زائفة فحواها أن دخول الإسلام لقارة أفريقيا كان نتاجاً لقوّة السيف، وأن تاريخ أفريقيا الحضاري يبتدئ من دخول المستكشفين الغربيين إليها، أولئك المغامرون الذين كانوا طليعة للحملات الاستعمارية التي جثمت طويلاً على صدر القارة واستنزفت خيراتها واستعبدت شعوبها.

ومن ناحية أخرى فإن دراسة انتشار الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء تؤدي بحكم طبيعة الموضوع إلى دراسة العلاقات العربية الأفريقية قبل ظهور الإسلام وخلال سنين انبلاجه الأولى، وحينما أظهره الله، ما يعني أنه سيتم تسليط الضوء على هذه العلاقات من جوانب عديدة، من أهمها الجانب الديموغرافي السكاني، سواء في بلاد العرب المسلمين أو في أفريقيا، وذلك من حيث أسباب الهجرات وطرقها واتجاهاتها وأماكن استقرارها، وتأثيرها وتأثرها ببيئاتها الجديدة وطبيعة مكوناتها البشرية.

وفي الجانب الاقتصادي فإنه سيتم التعرض لطبيعة النشاط الاقتصادي، وبالأخص من الناحية التجارية، سواء كان ذلك لدى المسلمين، أم في أفريقيا من حيث أساليب التجارة، وأنواع البضائع، وأماكن الأسواق، وما إلى ذلك من أمور تتعلق بالنواحي التجارية.

وكذلك فإن الجانب الفكري يدخل ضمن نطاق هذه الدراسة من حيث النشاط الدعوي، وما رافقه من إنشاء المنارات العلمية والمدارس والكتاتيب والزوايا الصوفية التي ساهمت بفاعلية في نشر الدين الإسلامي في أفريقيا جنوب الصحراء.

وهكذا فإن هذه الدراسة ستكمن أهميتها في تناولها لجوانب تاريخية مختلفة – دينية واجتماعية واقتصادية وفكرية – وذلك كلّه ضمن إطار تناولها لموضوعها الرئيس وهو انتشار الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء.

وتهدف هذه الدراسة إلى توضيح الوسائل التي انتقل من خلالها الدين الإسلامي إلى القارة الأفريقية وانتشر في ربوعها حتى أصبح هو الدين الأول من ناحية عدد المعتنقين له، وذلك في إطار من الموضوعية التاريخية، والابتعاد عن التضخيم، والمبالغة، والتأويلات غير

العلمية التي لجأ إليها بعض من أرّخ لأفريقيا من مؤرخي الغرب، على أن يتم ذلك بالاعتماد على الحقائق التاريخية الثابتة، وعن طريق المصادر الموثوقة.

كذلك فإنه يندرج ضمن أهداف هذه الدراسة المراحل والأطوار التاريخية التي مرّت بها الدعوة الإسلامية في أفريقيا.

ومن خلال ذلك فإن هذه الدراسة ستحاول إبراز الجهود الكبيرة للمسلمين الأوائل في مجال نشر الدين الإسلامي، وإيضاح ما بذلوه من تضحيات في سبيل ذلك، والطرق التي سلكوها حتى نجحوا في مساعيهم، وهذا الأمر يكتسب أهمّية متزايدة في الوقت الحالي والمستقبل، من حيث أن القارة الأفريقية تتعرّض لمد تنصيري مسيحي منظّم وعلى نطاق واسع، الأمر الذي يستوجب ضرورة مقاومة هذه الهجمة التنصيرية عبر إعادة تفعيل نشاطات الدعوة الإسلامية، وهذا لن يتأتى بشكل منهجي ومنظم، إلاّ بالتعرّف على جهود أسلافنا الأوائل، ومعرفة وسائلهم في نشر الإسلام في القارة، ومعرفة الصعوبات التي واجهتهم، والظروف والعوامل التي ساعدتهم من أجل العمل على تطوير تلك الوسائل بما يوافق ظروف العصر الحالي، وبما يخدم قضيّة نشر الإسلام ومواجهة حملات التنصير، وأيضاً من أجل استنباط العبر، واستخلاص الدروس من تجربة الدعاة الأوائل حتى يتم تلافي أوجه التقصير القديمة إن وجدت، وانتهاج وتعميم السبل الناجحة والمفيدة التي استخدمها المسلمون في نشر دينهم.

إن الدراسات السابقة حول هذا الموضوع ما زالت قليلة وقد اهتم بها جماعة من المؤلفين، ولكن كتاباتهم جاءت ضمن مواضيع انتشار الإسلام في أفريقيا بصفة عامة، ولم تكن هناك دراسات متخصصة في هذا الموضوع على حد علمي، فعند فحصها نجدها تتناول جوانب معيّنة وتهمل الأخرى.

أما فيما يتعلق بالمصادر والمراجع التي اعتمدت عليها فهي كثيرة ومتنوعة، حيث سعيت جاهداً للإطلاع على أكبر قدر ممكن منها، وقد تمكنت من الحصول على الكثير من المصنّفات المطبوعة سواء المتوفرة في مكتبات المدن والجامعات الليبية أم في بعض مكتبات جمهورية مصر العربية، ومن أهمها مكتبة معهد الدراسات الأفريقية ودار العلوم بجامعة القاهرة، وسوق الكتب القديمة بالعتبة، وما اقتنيته من معرض القاهرة الدولي للكتاب عام (2004م) ومعرض طرابلس الدولي للكتاب عام (2005م) ومعرض الكتاب بمدينة مصراتة عام (2005م).

ومن أهم هذه المصادر:

- كتاب رفع شأن الحبشان للإمام جلال الدين بن عبدالرحمن السيوطي، وهذا الكتاب مقسم إلى ستة فصول تناول فيه صاحبه لمحة جغرافية عن الحبشة وأصل الأحباش وعلاقتهم بالعرب قبل الإسلام والأحاديث الواردة فيهم، ثم ما نزل فيهم من الآيات الكريمة، وما ورد في القرآن بلسانهم وما تكلم الرسول (ﷺ) من لغتهم، ثم الهجرة إلى الحبشة، وذكر لبعض خيارهم وعددهم وما فيهم من الخواص والمحاسن وقد استفدت منه كثيراً وخاصة في الفصل الثاني والثالث.
- كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لشهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري، خاصة الجزء الرابع ممالك اليمن والغرب الإسلامي وقبائل اليمن، واستفدت منه في الفصل الأول والثالث.
- كتاب معجم البلدان لأبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي، وقد استفدت منه كثيراً في أغلب فصول البحث وخاصة في تحديد الأماكن والبقاع.

إضافة إلى تلك المصادر فقد استعنت بمجموعة أخرى، منها كتاب صبح الأعشا في صناعة الإنشا للقلقشندي، والبداية والنهاية لابن كثير، والسيرة النبوية لابن هشام، وتاريخ السودان للسعدي، ووصف أفريقيا للحسن الوزان، ومروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي، وكتابي السلوك لمعرفة دول الملوك، والمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي.

أمّا المراجع التي اعتمدت عليها فهي متعدّدة ومتنوعة من أبرزها:

- كتاب موسوعة التاريخ الإسلامي للدكتور أحمد شلبي، خاصة الجزء السادس الذي يتضمن الإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء أفريقية منذ أن دخلها الإسلام حتى الآن وقد اعتمدت عليه في أغلب فصول البحث.
- كتابا الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا، والإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا لعبد الرحمن زكي، وكتابي إمبراطورية غانة الإسلامية، وإمبراطورية البرنو الإسلامية لإبراهيم طرخان، وكتاب الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا حتى قيام دولة الفولاني لحسن

عيسى عبد الظاهر، وكتاب إسلام نجاشي الحبشة ودوره في صدر الدعوة الإسلامية لسامية عبد العزيز منيسي.

وبالإضافة إلى تلك المصادر والمراجع فقد اعتمدت على العديد من المقالات والأبحاث التي كتبت في عدد من المجلات والندوات والمؤتمرات العلمية.

أما في ما يخص خطة البحث فقد قسمت الموضوع إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، ذكرت في الفصل الأول تطور العلاقات العربية الأفريقية، وهو فصل تمهيدي يتناول مقدمة جغرافية عن القارة الأفريقية وموطن الدراسة ابتداءً من أصل تسمية أفريقيا بهذا الاسم إلى دراسة لأهم السلالات البشرية جنوب الصحراء، ثم نشوء وتطوّر العلاقات السياسية والتجارية العربية الأفريقية قبل الإسلام مع ذكر لأهم الهجرات العربية والعوامل التي ساعدت على الهجرة إلى أفريقيا جنوب الصحراء.

أما الفصل الثاني فخصصته للهجرة وأثرها في نشر الإسلام بداية من هجرة الصحابة (رضوان الله عليهم) في زمن الرسول (ﷺ) إلى الحبشة، ثم أهم الهجرات الإسلامية، ودورها في توطيد الإسلام والعروبة جنوب الصحراء.

وفي الفصل الثالث تطرقت إلى التجارة ودورها في نشر الإسلام جنوب الصحراء ابتداءً من معاهدة البقط، أو كما يسميها البعض (معاهدة النوبة) ثم التجارة الكارمية والعلاقات التجارية، ومكانة تجار الشمال الأفريقي بممالك وشعوب جنوب الصحراء، ثم أهم المدن والمراكز التجارية جنوبي الصحراء ثم ختمت هذا الفصل بنبذة عن دور التجار المسلمين والجهود الصادقة في نشر الإسلام في المنطقة.

وقد اختتمت الدراسة بفصل رابع تناولت فيه أثر الدعاة والطرق الصوفية في نشر الإسلام بين الأفارقة جنوبي الصحراء، وأهم مراكز الدعوة التي ينطلق منها الدعاة، ثم أهم وأشهر الدعاة الذين قاموا بجهود في نشر الإسلام وقاموا بحركات إصلاحية، ومن خلال ذلك ذكرت معنى التصوف أو الوعي الصوفي وأشهر الطرق الصوفية ودورها في نشر الإسلام جنوب الصحراء الكبرى.

ولقد واجهتني عدة صعوبات وعقبات أثناء إعدادي لهذه الدراسة أهمها:

- قلّة المصادر والمراجع الموجودة في مكتباتنا الليبية التي تتحدّث عن هذا الموضوع، وقد تحصّلت على أغلبها من جمهورية مصر العربية ومن معرض القاهرة الدولي للكتاب عام (2004م).
- إن هذه الدراسة هي دراسة دعوة ومن الصعب تحديدها وتقييدها بزمان، فهي سلسلة مترابطة ومتواصلة إلى يومنا هذا، وقد حدّدت الدراسة بالعصور الوسطى، رغم أنّي خرجت عن إطارها الزمني وأرجو أن يكون ذلك لصالح الدراسة لا عليها.

وأتمنى من الله – العلي القدير – أن أكون قد وفقت في دراستي هذه، فإن كنت كذلك فمن عند الله، وإن كانت الأخرى فمن نفسي، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت، وإليه أنيب.

والله ولي التوفيق...